استعادة سارتر

سعد محمد رحيم

سارتر وسيمون دي بوافوار

ليس من السهل تلخيص أفكار سارتر في بضع صفحات، هو الذي جال في ميادين عديدة، وتناول قضايا عصره في مئات المقالات، حتى أنه كان يكتب في حدود العشرين صفحة مطبوعة في اليوم الواحد، لكن من الممكن الإشارة إلى نتف من أفكاره وفلسفته التي وزعها لا في مقالاته وكتبه الفكرية والفلسفية وحدها، وإنما في رواياته وقصصه ومسرحياته، وقد وجد هناك من ينكر أن يكون سارتر فيلسوفاً كما هو شأن كانط وهيجل وهوسرل، فقالوا؛ إنه أديب مهتم بالفلسفة، ويضمّن نصوصه أفكاراً فلسفية، أكثر من كونه فيلسوفاً يكتب النص الأدبي بين الحين والحين. غير أن فوكو ينعته بالفيلسوف الأخير الذي لَما مات مضت معه فلسفته. وكما هو شأن معظم الوجوديين فإن سارتر وسيمون دي بوفوار لم يختارا هذه التسمية. الوجودية. كما تذكر دي بوفوار حين سئلت عمن أطلق كلمة الوجودية على فلسفتهما، فقالت: (ليس سارتر على كل حال. الكلمة غبية لكنها التصقت بنا ووافقنا عليها، وبعد ذلك فإن دور الأزياء الثقافية الباريسية كفيلة بكل شيء). وعما قيل عن موت الفلسفة بموت سارتر، تحدد دي بوفوار رؤيتها ورفيقها إلى الفلسفة فتقول: (لم يكن سارتر يعتقد بالفلسفات الجامدة، فالفلسفة هي نوع من الجدل مع العالم، وعندما يتغير العالم يجب أن تتغير الفلسفة، والعكس بالعكس.. لا أعتقد أن الفلسفة ماتت بموت سارتر.. إن الفلسفة الغربية في أزمة، فثمة قلق داخل اللغة وخارجها، وببساطة أننا نشعر كما لو كنا داخل مكوك فضائي ضاع في الفضاء).

يشير س. م. البيرس إلى أن (الوحدة الإنسانية، والحرية الإنسانية، والمسؤولية الإنسانية، كل ذلك مدروس في نظام منهجي على غاية الدقة، والرغبة في حبس الإنسان في الإنسان، وإخضاعه لمسؤولية مستقلة تمام الاستقلال. هذه هي على ما يبدو، المواقف الأساسية لتفكير جان بول سارتر).

وعلى الرغم من أن هذه النزعات لم تكن طارئة على الفكر الإنساني ، فإن سارتر أعطاها إطارها المنهجي وعمقها وترسيمتها الفلسفية المتوافقة مع الوضع البشري بين الحربين وما بعدهما مثلما تلمسه ورآه وخبره هو. سارتر. وجيله.. يقول البيرس: (إن سارتر يمكن أن يعتبر الكاتب الذي نقل إلى الحقل الفلسفي القضية الرئيسة للقدر الإنساني كما يواجهها عصرنا، بأن ردها إلى أوضح عناصر واكثرها جفافاً. وإن ما هو لدى معاصريه نقاش وقضية مفتوحة وغنائية متحمسة، وبحث قلق ولكنه ممزوج بالتخيل، وميثولوجية غالباً، وشعر أحياناً، كل ذلك أخضعه هو لمنهج بعينه ولموضوعات هذا المنهج).

مع الفلسفة الوجودية نعرف أننا موجودون من دون اختيارنا، وموجودون من دون أن يكون هناك مسوغ لهذا الوجود، وهذا ما يضعنا أمام المسؤولية التي تكتسب طابعاً أخلاقياً والتي نحسها في دخيلتنا إزاء هذا الوجود.. يقول روكانتان في رواية "الغثيان" (إن فكري هو أنا: من هذا لا أستطيع أن أقف. إنني موجود لأنني أفكر. ولا أستطيع الامتناع عن التفكير. وفي هذه اللحظة، يا للفظاعة، إذا كنت موجوداً، فلأنني أذعر من أن أوجد. أنا، هي التي تجذبني من العدم الذي أنشده).

كان سارتر يشمئز من أولئك الذين يعيشون حياتهم مطمئنين واثقين من أنفسهم والذين يعتقدون أنهم مسوغون. مبررون. فيهربون من مسؤوليتهم، وبحسب سارتر فإن حياة الوعي والشعور هي الواقع الوحيد الذي جربه الإنسان، وهو وعي يولد موجهاً إلى كائن ليس هو إياه، والوعي بحاجة إلى ذلك الكائن. الأشياء. من أجل أن يوجد، على عكس الكائن. الأشياء. الذي ليس بحاجة إلى شيء لكي يوجد. فهو موجود في ذاته، بينما الإنسان بوساطة وعيه موجود لأجل ذاته. فالإنسان وحده من شأنه، وفي مقدوره أن يختار، لذا فإن وجوده يكون لذاته. أما وجود الأشياء الأخرى فهي وجود في ذاته لأن ليس من شأنها وليس في مقدورها أن تختار.

يتدخل الوعي في عملية الاختيار، ومع الوعي يدرك الإنسان فداحة نقصه فيسعى لأجل تجاوز ذلك النقص فينشد الكمال لوجوده ليكون وجوداً في ذاته، وهذا ما يعد مستحيلاً بالمرة. فمعضلته تكمن في ذاته التي تهرب منه، وهو إذ يحاول اللحاق بها لتدارك النقص في وجوده عليه أن يختار، وهنا تبرز مسؤوليته إزاء ما يختار، (والمسؤولية تدفع الى العمل، والعمل هو الإنسان، والإنسان هو أفعاله، والإنسان يفعل ليستكمل النقص في الوجود، لأن الوجود الخارجي وجود في ذاته لا يعي وجوده، والإنسان يريده وجوداً لذاته يعي وجوده، ومحاولته غرور الغرور وعبث).

إن الوجود يسبق الماهية، والإنسان من خلال أفعاله هو من يصنع ماهيته من دون موجهات قبلية.. إنه حر في أن يصوغ وجوده على وفق ما يلائمه، فالوجودية تعطي القيمة المركزية للإنسان الذي يتمتع بالإرادة والعقل الحر، وبحسب سارتر لا يمكن لحرية الإنسان أن تكون كلية، فالإنسان محدد بالوراثة وبالطبقة الاجتماعية والمولد والأمة. وهذا ما يشكل وضعه، وهو حر في هذا الوضع، وبالنسبة إليه، ولكي يكون حراً حقاً ، عليه أن يعترف بوضعه، وأن يختار بين أن يتقبل وضعه أم لا.. أن يغيره أم لا. والإنسان حر على وفق رؤية سارتر لأنه هو الذي يعطي للأشياء معنى. ونقطة انطلاقه الفلسفي هي أولوية الشعور والوعي. فمن خلالهما نواجه وقائع "الحرية والمسؤولية والتضامن" ونمنحها قيماً بأن ننظر إليها مواجهة، ومن خلال العمل ندخل التغييرات والتبديلات على معنى العالم، فالحرية تعد مزيفة إذا ما اقتصر الإنسان على تأمل العالم من دون المشاركة فيه. والحرية تتخذ معناها الصحيح في العمل، والإنسان (الذي ليس هو شيئاً، والذي هو قريب هذا القرب من العدم، ومتعلق بالأشياء، والذي هو مع ذلك الحامل الوحيد للمعاني في العالم، إنما هو . مشروع . فليست قيمته في أن يعتبر نفسه قائماً ومثبتاً في الوجود، بل في أن يعطي لهذا الوجود معنى جديداً بمسؤولية لا عون لها).

وكما يرى سارتر فإن على الإنسان أن يخلق قيمه، وأن يرفض القيم القبلية القائمة، فحياة الإنسان كما يعتقد ويريد مصنوعة من المستقبل، كما هي الأجسام مصنوعة من الفراغ، على حد تعبيره. فوضعنا في العالم يحد من حريتنا، وعلينا أن نقابله بمشروع. ويكون لا أخلاقياً (أن يرفض الإنسان هذا الخلق المستمر، وأن يسترخي في قيم ماضية جامدة). فليس هناك جوهر متجمد علينا أن نحترمه، وإنما هناك وجود جديد علينا أن نسوغه من دون انقطاع.. يقول البيرس: (إن سارتر هو كاتب عصر ينفصل عن فكرة التقاليد، ليجعل من الحضارة تجدداً، لا حفظاً للقوانين ومراعاة. ومن الحياة مغامرة، لا نظاماً قائماً).

أدرك سارتر طبيعة انتمائه البورجوازي، وما علمته إياه هذه الطبقة (الحريات السياسية، والحصانة الفردية، وسلطة الذات، الخ) لكنه كان يشعر بضرورة أن يكون إلى جانب البروليتاريا، يقول: (نحن ما زلنا بورجوازيين بثقافتنا، بطريقتنا في الحياة، وبجمهورنا الحالي، لكن الموقف التاريخي يحثنا في الوقت نفسه على الانضمام إلى البروليتاريا لبناء مجتمع بلا طبقات).

ها هنا يجد نفسه بين انتماءين، ولأن كل طبقة، كما يرى، تجهل أحد حدي التناقض ﴿ حرية التفكير، والحريات المادية ﴾ فعليه أن يعاني هذا التطلب المزدوج (إن هذا التطلب هو مشكلتنا الشخصية كما أنه مأساة عصرنا) وهو لا يريد التخلي عن الحريات الشكلية كي ينكر أصله البورجوازي، ولا أن يترفع عن المطالب المادية كي يكتب بضمير مطمئن، يقول؛ (علينا أن نتجاوز التعارض في أنفسنا ومن أجل أنفسنا. ولنتقنع أنفسنا أولاً بأنه قابل لأن يتجاوز.. إن الأدب يقدم لنا الدليل على ذلك من نفسه، لأنه عمل حرية كلية متوجهة إلى حريات مطلقة، ولأنه يظهر بالتالي على طريقته باعتباره نتاجاً حراً لنشاط خلاق، كلية الشرط الإنساني).

هنا يتحدث سارتر عن اتخاذ موقف في الأدب، وعن الالتزام في الكتابة. وموضوع الأدب عنده دائماً هو الإنسان في العالم (فلكي ننقد الأدب، فلا بد من أن نأخذ موقفنا . في أدبنا . لأن الأدب بماهيته هو اتخاذ لموقف). وقد حاول دائماً أن يجد نوعاً من التوافق أو التزاوج بين الوجودية والماركسية.. بين الاشتراكية وحرية الذات الإنسانية (إن علينا أن نرفض في جميع الميادين الحلول التي لا تستوحي بعمق المبادئ الاشتراكية، لكن علينا في الوقت نفسه أن نبتعد عن جميع المذاهب وجميع الحركات التي تعتبر الاشتراكية غاية مطلقة.. إن الاشتراكية في نظرنا ينبغي أن تمثل الغاية الأخيرة، بل غاية البداية، أو إذا فضلنا الوسيلة الأخيرة قبل الغاية التي هي تمليك الشخص الإنساني لحريته).

تعامل سارتر مع الماركسية باحترام فائق، لا بانقياد أعمى، واستثمر أدواته المنهجية في نقد الفكر الماركسي، ولم يكن هدفه تسفيه ذلك الفكر، وإنما تقويمه لأنه آمن بأن الماركسية هي نظرية الطبقة العاملة وفلسفتها في الفعل الثوري، كما هي فلسفة العصر. وفي كتابه الذائع الصيت " نقد الفكر الجدلي" حاول دحض فكرة ديالكتيك الطبيعة والحتمية التاريخية، وفكرة وجود قوانين موضوعية خارجية تسير التاريخ الإنساني، فاسحاً الفرصة للوعي والإرادة الإنسانيين في صنع التاريخ. وانتقد بشدة كل ما يتعلق بمصادرة الحرية الفردية داخل الإطار البيروقراطي للدولة الستالينية، والممارسات الاستبدادية لتلك الدولة في علاقتها مع مواطنيها، ومع الدول التي كانت يومها ضمن المعسكر الاشتراكي، لا سيما خلال أحداث المجر وبولونيا وربيع براغ.

لم تكن الوجودية في إطارها الفلسفي سياسية، ولم تكن لها أن تتلاءم مع الأنماط السياسية السائدة، وكذلك ليس بالإمكان عدها إيديولوجيا، كما أن الفلاسفة الوجوديين لم يحاولوا على اختلاف مشاربهم وأهوائهم تأسيس إيديولوجيا، والترويج لها، على الرغم من اقتراب بعضهم قليلاً أو كثيراً من هذا المذهب والاتجاه أو ذاك. هيدجر من النازية، سارتر من الماركسية، في سبيل المثال . بيد أن الطابع السياسي للوضع البشري، وتأثير العامل السياسي في تحديد أقدار المجتمعات والأفراد جعل من الوجوديين على تماس مع السياسة، وتجلت وظيفتهم الكبرى في هذا المضمار بالنقد.. نقد المذاهب والإيديولوجيات والأفكار التي تحد من الحريات الإنسانية، وتفتح الذات الإنسانية الخلاقة. ولعل سارتر هو أكثر الفلاسفة الوجوديين اهتماماً بالشأن السياسي، وهذا الاهتمام هو الذي قاده إلى الماركسية.. يقول: (إن الماركسية بيننا ليست مجرد فلسفة: بل هي مناخ أفكارنا، الوسط الذي تتغذى منه، الحركة الحقيقية لما يسميه هيجل الفكر الموضوعي. إننا نرى فيها ثروة ثقافية لليسار. بل إنها وحدها الثقافة منذ أن مات الفكر البورجوازي، لأنها هي وحدها التي تسمح بفهم البشر والأعمال والأحداث).

كان سارتر على وفاق نسبي مع فكر ماركس، لكنه لم يكن كذلك مع الماركسيين، ومع الماركسية بصيغها السائدة، مثلما تجسدت في تجربة الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية، وفي التنظيمات الشيوعية في أوروبا الغربية.. كان يؤمن بثراء المنجم الماركسي، وينفر من ضعف قابليات القائمين على ذلك المنجم.. يقول: (إننا لا نطلب شيئاً من الماركسية سوى أن تعيش، أن تنفض عنها غبار كسلها الفكري المجرم لتعطي الجميع، دونما امتيازات، ما يتوجب عليها أن تعطيه). ولقد عانى سارتر من سوء فهم الماركسيين والشيوعيين له، ولطروحاته.. يقول: (إن أدعياء الماركسية لا يعيرون الآخرين شيئاً أبداً . وعذرهم هو فقرهم . وعندما لا يفهمون نصاً من النصوص يتصورون أن مؤلفه غبي على شاكلتهم).

في ذروة الحرب الباردة كان سارتر قد حسم اختياره، ولكنه ظل على مسافة مما اختار.. كان يبغي سياسة أكثر واقعية وإنسانية، وأشد فعالية من الحزب الشيوعي الفرنسي، فإذا رجعنا إلى المصطلحات الحية لذلك الزمان (اليسار واليمين.. الاشتراكية والرأسمالية.. التقدمية والرجعية، الخ) فقد كان سارتر يسارياً اشتراكياً تقدمياً، يجد نفسه إلى جانب الشغيلة ضد الاستغلال الرأسمالي، وضد استبداد البيروقراطية الاشتراكية، فعلى خلفية أحداث المجر ١٩٥٧ كتب مقالته الشهيرة "شبح ستالين" مندداً بممارسات الجيش الأحمر وقوات الأمن المجرية اللذين يفترض أن يكونا جيش وقوات الطبقة العاملة وقد راحا يطلقان النار على الطبقة العاملة المتمردة.. يقول: (والمصفحات السوفياتية إنما أطلقت النار، في بودابست، باسم الاشتراكية على بروليتاريات العالم كافة).

تحرى سارتر عن الأسباب الثاوية وراء ما جرى، وحاول أن يضع إصبعه على الجرح مهما كان عمقه وشدة الألم (إن ما أفقد الجماهير صبرها هو ذلك الخليط المدهش، في قلب الحزب بالذات . يقصد الحزب الشيوعي . من ستالينية لا تزال عدوانية، ومن أنصار اللاستالينية. إنها الترددات، الرجوع إلى الوراء، المماطلة والتأجيل، والتناقضات). وإلى حد بعيد استوعب سارتر تلك التناقضات، وعراها بتصميم مخلص، بعد أن وجد أن خطأ ستالين الفادح كان (بدلاً من أن يشد الاتحاد السوفياتي حلفاءه إليه بتضامن فعلي وإيجابي فضل أن يخلق مسوخاً لا تستطيع أن تعيش بدونه). حقاً، فمع تفكك الاتحاد السوفياتي، فيما بعد، تساقطت حكومات دول الكتلة الشيوعية كأحجار الدومينو الواحدة تلو الأخرى، ففي هذه الدول كما أبصر سارتر بعينه الثاقبة (كانت الاشتراكية بضاعة مستوردة، وكانت الثورة مصنوعة من فوق، وكان الجيش الأحمر قد فرض زعماءها).

ليست الوجودية نظرية أو فلسفة متكاملة، متسقة بحيث نستطيع أن نتكلم عن فلاسفة وجوديين، متضامنين في الرؤى والأفكار والقناعات، مثلما هو الحال مع السورياليين والرمزيين مثلاً.. إننا ها هنا لسنا إزاء مدرسة، ولا سيما أن أولئك الفلاسفة والمفكرين يتطيرون من كلمة "مدرسة" وأحياناً حتى من كلمة "الوجودية" نفسها كما هو شأن البنيويين مع "البنيوية". ومنذ ظهورها، وصعود نجمها، ثم خفوت ضوء ذلك النجم، ظلت الوجودية في مرمى سهام النقد الذي كان بعضه موضوعياً، علمياً ومنهجياً، وكان بعضه الآخر متهافتاً، غير علمي، ولا يستند إلى منهج واضح وفعال.

هناك من اتهم الوجودية بطغيان النزعة الفردية، واللاعقلانية، والتشاؤم، وعدم الاكتراث بالأخلاق، وبأن نظرتها الإنسانية ضيقة، أي (أن الإنسان في هذه الفلسفة قد أتخذ مقياساً لكل شيء في إطار يدور حول الإنسان.فليس هناك، مثلاً، فلسفة للطبيعة عند الوجوديين، ولا اهتمام بذلك الضرب من الكائنات التي تدرسها العلوم الطبيعية). ولكن هذه السمات/ العيوب إن وجدت بهذه الدرجة أو تلك، عند هذا المفكر الوجودي، أو ذاك، ينبغي ألاّ يجعلنا نغمط هذه الفلسفة، التي شغلت عقول ملايين الناس في القرن الماضي، حقها.. يقول جون ماكوري في خاتمة كتابه "الوجودية": (أعطتنا الوجودية الكثير من الاستبصارات الجديدة العميقة حول سر وجودنا البشري الخاص، وأسهمت بذلك في حماية إنسانيتنا وتدعيمها في مواجهة كل ما يتهددها في يومنا هذا. ولقد قدمت، بوصفها فلسفة، معياراً نستطيع بواسطته أن نفسر أحداث عالمنا المعاصر المحيرة، وأن نقومها.....وسوف أظل أقول إننا نستطيع أن نتعلم من الوجودية حقائق لا غنى عنها لوضعنا الإنساني، حقائق قد لا تستغني عنها أية فلسفة إنسانية سليمة في المستقبل).

وإذ نستعيد فكر سارتر مثلما طرحه في مؤلفاته، نرى أنه لم يكن لا عقلانياً بأي حال من الأحوال، ولم يدع إلى التحلل الأخلاقي كما فهمه بعضهم. وأن تأكيده على النزعة الذاتية والإنسانية قد جاء في مواجهة الإيديولوجيات الشمولية ومنها الفاشية والنازية والستالينية، فضلاً عن الرأسمالية. وهذه الإيديولوجيات الشمولية كلها، إنما تقصي الإنسان أو تستبعده، أو تسحقه باسم مبادئ مثالية عليا، زائفة تارة، أو في سبيل الربح المادي والتوسع في الأسواق تارة أخرى. أما سمة التشاؤم في تفكيره فقد قابلها إصراره على فكرتي الحرية والمسؤولية، وبناء الإنسان لماهيته، وإعطاء حياته معنى من خلال العمل.

تركت الوجودية أثرها في الآداب والفنون، وفي رؤية المعاصرين إلى ذواتهم وزمانهم وعالمهم. وإذا استبعدنا تحت طائلة تبدل الشروط التاريخية التي تتحكم بالوضع والفكر البشريين احتمال عودة الوجودية بحلتها القديمة، ومنها ما أضافها سارتر عليها، لتكون موضة لجيل جديد، فإن الوجودية تسربت، لا شك، إلى نسيج ثقافة العصر وخلاياها، مخلفة بعضاً من صبغتها وأثرها فيها. وكما نقول إن الثقافة الإنسانية قبل ماركس ليست هي الثقافة ذاتها بعد تسيد الماركسية، على الرغم من إخفاقات التجارب الاشتراكية المستلهمة لماركس. كذلك، في مقدورنا القول، ولو بدرجة أقل، أن ثقافتنا الإنسانية قد أخذت من الوجودية وسارتر ما صيرتها أوسع وأغنى.

أعطانا سارتر، مع الفصيل المتنافر من الفلاسفة والمفكرين الوجوديين، فكرة أعمق عن الحياة والذات والحرية والمسؤولية، وعن فكرتي الاختيار والمعنى الوجوديين. وأيضاً، منهجاً نقدياً نضع معه الحياة والعالم وأنفسنا، دائماً موضع التساؤل.

إن من شأن التاريخ أن يمحو لحظات الفكر والفعل البشريين، وان يحتفظ بها في الآن ذاته، في ركن من أركان غابته المتشعبة العظيمة. ولا ريب، أن ثمة ركناً في تلك الغابة للوجودية والوجوديين، ومنهم جان بول سارتر.

صراع الجبابرة

أ.د. عقيل مهدي يوسف

من افدح الخسائر القيمية في المسار المسرحي ان يلتقط المخرج نصاً درامياً يحابي فيه مؤلفه !! لان ذلك سينعكس بطريقة مباشرة على العرض.

وسوف تصطدم رؤيته الاخراجية بعوائق خارجية ابرزها ان المؤلف لا يريد "تخريبا" لنص شيده طوال أيام وليال، واراد لـ "كلماته" ان تقرع اسماع المتفرجين المفترضين، لتشنفها بالسحر الحلال، فضلا عن ان المخرج سيقامر بتجربته التي يحاصرها "الزيف" ان حذا حذو خطوات النص نفسها لانه سيرضي ذائقة غيره، ويطمر حسه الجمالي في اعماق سفلى متنحية عن الصدارة، ليحافظ على خريطة كتابية، تجاوزها المعمار البصري الراهن فلا يمكن ان "تتشاكل" الرؤيتان للكاتب وللمخرج ، بل ينبغي ان تخترق احداهما الأخرى، ليتم خلق فضاء متوتر، مشحون بالحركة، ومحققا الانزياحات المطلوبة في لغة العرض، والا فلماذا يعاد تقديم النصوص العالمية بلغة مغايرة عند كبار المخرجين المعاصرين والمجددين؟

من المحزن ان ترى انقساما يفترضه المؤلف "كلي القدرة" ما بين سادة نجب ، وآخرين شغيلة، فيحق للاول ان يمارس املاءاته على الثاني!! وعلى المخرج الانصياع لذلك الجبروت النصي بلا حول ولا قوة، وربما يذكر بعضنا الكثير من الخلافات ما بين الطرفين، ويكون السجال ضارياً باتهام احدهم للاخر وتخوينه في الحفاظ على الامانة. بل وصل الحال إلى ان روائيا مرموقا بلا ادنى شك، تهجم على مخرج شاب طموح لانه "تجرأ" على اعداد روايته نصا للعرض والمشاهدة، ونقله من فنون "السرد" إلى فن المشاهدة!! وكأنه كان يتمنى عليه ان يتلوها امام المشاهدين من الغلاف إلى الغلاف! وهنا ينبغي ان نعلنها صريحة، ليست كل التجارب الاخراجية على صواب وكل الكتاب المسرحيين على "باطل" !! لكننا اردنا الاشارة إلى احترام حقوق مهنة كل منهما. فالمخرج يحترم الكاتب منذ ان اختار نصه للتقديم، وعلى الكاتب ان يتحلى بالروح الرياضية مهما تطرف المخرج باستثمار وسائله الاخراجية، وذلك لان النص الجيد يلهم المتلقي الاول له وهو المخرج في هذه الحالة، لان يعيد انتاجه هيكليا، وفق تأويلاته الخاصة، والمتفردة، بعد ان يعالجه ويستقطر صوره الدرامية ويعمق صراعاته الخفية في خطته الجديدة التي غادرت المساحات المعلنة في النص بوضوح بين.

وحاشى المؤلف الرصين ان تسكنه نزعة (برجماتية) نفعية ، لننظر ما ستؤول اليه تجربة العرض، فان نجحت فهو معها، وان فشلت!! فعليك تصور مدى التحرش والتشويه الذي طال رائعة (النص) المصون، طاهرة الذيل والمحتد!! بل انه يحاجج بالزمن الذي استغرقه في كتابة نصه.

كان المخرج الروسي الكبير ، قد ذكر حادثة في هذا الصدد، فهو كما يذكر في كتابه الجاد "التمرين حبيبتي" ان احد المؤلفين جاءه بنص، استغرقت كتابته خمس سنوات، وحين قرأه المخرج (ايفروس) قال له، ان نصه هذا لم يستغرق من الوقت سوى فترة خطه باليد على الاوراق!! لذلك اعتذر عن تقديمه. وربما تبقى النصوص الجادة مطلوبة بعد رحيل مؤلفيها انفسهم، وهم بالتالي لا يستفتون حول نجاح نصوصهم أو اخفاقها بل يبقى النص بقوته الفنية، ودفعه الذاتي، محافظا على تميزه وتفرده.

ان القراءة السريعة قد تنبهر بمقطع ما في النص، شبع بالعواطف المتطرفة التي لا تليق بالوقار الدرامي، الذي تنسجه انامل خبيرة، تدرك ابعاده ومراميه القصية، فتتجنب لغة الداعية وخطبته المنبرية العصماء!

ولهذا قد يستغرب هذا القارئ أو ذاك حين يطلع على نص معروف ان يراه مكتوباً بكلمات وهي كما يحسبها لا تفرق عن كلمات أي نص آخر!!

وقد يعزو نجاح هذا النص إلى الحظ والى افلاك النجوم!! ولكن الحقيقة هي خلاف ذلك بالتاكيد. صحيح ان النصوص تكتب "حواريا" غير ان النصوص الابداعية الخلاقة تنطوي على كنوز نادرة وثمينة تخص بنيتها الدرامية، وطبيعة عناصرها الدرامية، من شخوص وحوار وحبكة وصراع ومواقع صمت فاعلة وبؤر اشتغال متنوعة ، تقود بالتالي بممراتها السرية تاويلات اخراجية متباينة وليست جاهزة لتقديم "حلول" احادية معروفة سلفا. وحسبنا ان نرى قيام ظاهرة جديدة وديمقراطية في الحوار بين المؤلف والمخرج على صعيد المساجلات، بل عن طريق احترام حقوق كل منهم للآخر، وان لا يسعى أي منهما لتجريد الاخر من صلاحياته، والتصريح بدلا عنه. ويخطئ من يظن العصمة في ذاته، أو تدفعه نرجسيته ليكون بديلاً عن الجهد الجمعي الخلاق في العمل المسرحي.

قفوا.. دعوا الضوء يمر

جاسم عاصي

إلى سادني عصافير الكلمات الشعراء والكتاب الذين طالتهم يد الارهاب

لا باب هنا..
ولا باب هناك، هوّن.. كيف تسللت الاصوات..؟
وكيف..
مرت عربات الليل
اصغ فقد مرت عرباتهم
اصغ مليا،
انصت، لا تاخذ نفسا،
اسمع صرير العجلات،
يتسلل كالوخز في الاحشاء
سراعا مروا.. ثقالا مكثوا
اهدأ، لا تنبس
وليسكت فيك الإحساس،
قطعوا منك الراس
ام حزوا الرقبة
لا تنبس،فالكل نيام
أو لاهون ببيت المال
بل يديرون شؤون العامة
في هذي البيداء،
وحيدا تبقى، وحيدا تمكث
فلا صوت غير وجيب القلب
ها هم مروا،
والاحياء...
يلهون أو يدفنهم حجر الكلمات.
لا توقظ نجما، ولا احمد،
لا توقظهما، من دفء القيلولة.
فسلامهمو انقى وابقى
لا تيأس
ضاع الفارس
وغابت اغنية الخيال
واختلط الحابل.....
واضطرب الكون
اما انت
فدعهم في دعة، فالازهار شذاها
يتوزع في الوديان
أو في عطفة رصيف،
ينتشر فوق ارض الكتب حروفا
وشموسا،
هي اقدس من كل الاقداس
كي تغدو كلمات الله
أو تولد اسئلة وكلاما شعريا
يحمي الحقل
فالورد يتيم
وشجيرات الآس
ذابلة
من يرفو من بعدك يا نجم قمصان الناس
ويخيط للعشاق اناقتهم.. من..؟
من يحفر على الاجر لمحات الوجه..؟
اللوحة باقية في السر،
في البرية
صوت الله يصيح
لا يسمعه الا الله...!
وها هي الطرق خالية وخاوية
والاماد فراغ،
وصوت يستنطق صخرة
هذا الرأس ، ويقول:
يا من بقي خطأ في تلك الدنيا،
الحذر.. الحذر،
من هذي الدنيا
واياكم ان تلهوا عن نبع الماء
أو حقل الازهار
فحسين قادم الان
وحيدا إلى الكوفة
لا بيعة، ولا جلبة
لا عهد على الاوراق من الناس،
عرف الفارس سر الدنيا
فعاد وحيدا هذي المرة
ليقول:
اياكم والغفلة عن القتلة
والاخوة الاعداء
واياكم ممن يزجي النور بالظلماء
اياكم ممن يستغفل طيب الازهار
ويخفي ما خشن من الاسرار
من يستغفلكم ارموا له في الدرب الاحجار
فالدنيا عثار
اياكم ان تمضي العربات
على غفلة
واياكم ... اياكم،
فهذا وطن منهوب
وهذي ارض سوف تباع
ثم تباح
من جند الله..!
لا احد يقف الان
فالكل نيام يلهون في ....
تسحرهم بهرجة الاسواق
ففي السوق بضاعة للعشاق
وفي السوق طيور وحمام وسراق
الحذر... الحذر
فالحمة لا تأتي الا من....
والغمة تسري مراوغة
على الزهر
وعلى الورد النعسان
فها هم عبروا.. وهاهم مكثوا،
يصحبهم لغط وصرير.. ورياح وصرير
فانتبهوا،
يالبشاعة هذا الكون
إذا كان الفجر وكان الماء
وكان الكون نقاء وعماء
فمن بعدك يا آبسو ويا تيمات
عبث العابث بالقطعان،
واختل الميزان
ودارت فينا الارض دورتها
واشتد النسيان
لاشيء سيبقى من بعدكما
لوحة لونها الابيض
وبيت من الشعر مولود كي يبقى
ليس هناك سوى القلم والفرشاة
والدهان
فليبحث عن شجن غاب
في النسيان
وعن فرح ينمو ضئيلا ويتيما
دعنا، احمد، ويا نجم
نرسم للاطفال
أو لبراءة هذا الكون
فليرسم كل منا رسما
وعلى الرسم شجون وهموم
وعيون
على الرسم يكون لنا
وطن، أو حجر نبني منه وطنا،
فاللوحة تنبئ باللون الصافي
وبالريح
ولينقى لا تملك ثمنا فالسيد هو الإنسان
ففي الرصاصات وعتاد
بل تملك اصابع اقلام
ودم حبر
فاياكم اياكم يا فلاحي الشعر
وصناع الحرف
اياكم ان تاخذكم فرقة
ويا محبي الكلم اتحدوا
لا تغفل عين الحارس
عمن يفسد فينا الذوق
ويشع البركان
فالسيد هو الإنسان
ففي البدء كان العمر
وفي البدء كان الماء
وفوقهما ترفرف روح الله
ومن فرط محبتهم كان...
الإنسان